

من أي موقع تتحدثون؟ وأية رسالة توجهون؟

رسالة إلى السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

نشر هذا المقال بجريدة الحياة المغربية الأسبوعية
بتاريخ 24-30 يونيو 2010



محمد العمري

جاء في جريدة أخبار اليوم (17 ماي 2010) أن السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية أحمد التوفيق — وفقه الله — توقف فجأة، وهو يتحدث عن الافتاء، "طبيعته" و"جهته"، ثم "رفع رأسه كمن يتذكر شيئاً مهماً، وقال أنه شاهد في التلفزيون قائداً سابقاً للمقاومة"، في إشارة إلى بنسعيد آيت يدر الذي حل ضيفاً على خمس حلقات من برنامج "شاهد على العصر"، وقال في إحداها إنه رفض تقبيل يد الملك الحسن الثاني، وأضاف التوفيق أن آيت يدر سقط في فخ السؤال ليقول: "بحالي بحالو" متحدثاً عن الملك الراحل"، وعلق الأستاذ التوفيق مبدياً بعض الاشمئزاز قائلاً: "نحن هنا لا نتحدث عن الأشخاص، بل لنا أن نستحضر المؤسسات...أنا ما بغيتوش يطيح، ما رضيتهاالوش...نحن لدينا قيم نوؤمن بها، وكمغاربة نقبل يد المغرب" (في النص: "المغربي"، وهو خطأ مطبعي).

وفي جريدة المساء لنفس اليوم أن الوزير تأسف لكون السيد بنسعيد استدرج من قبل الصحفي إلى أن قال: "لم اكن أريد أن يسقط..نحن نقبل يد المغرب"، ثم أضافن وهذا في منتهى الأهمية: "وحسب ما أعرفه فإن سيدنا يكره هذا الأمر، ومرة قال لي: "الضباط والعلماء أريد منهم أن يعطوا النموذج للآخرين".

هذا ما جاء في الجريدتين المذكورتين بالحرف حيناً، والمحاذاة حيناً. اطلعتُ عليه في مطار الدار البيضاء، وأنا في رحلة خارج المغرب، امتدت ما يقارب الشهر. ولذلك لا أعلمُ إن كانت هناك بيانات إضافية أو ردود فعل. بقي هذا التصريح الغريب، في نظري، يمور داخل نفسي إلى أن أطلق سراحه

نحو الورق في يوم جميل، في حاضرة المعتمد بن عباد، فخرج في شكل رسالة حوارية إلى السيد الوزير، أتمنى أن تكون مفيدة في إعادة التوازن إلى الموضوع.

سيدي الوزير، يطرح تصريحكم الملخص أعلاه سؤالين: أولهم يتعلق المقام التداولي، والثاني بانسجام المتن. نتمنى أن تتقبلوا بصدر رحب تساؤلاتنا في هذا المجال.

1- في مستوى المقام

إن صفتكم الإدارية (الحكومية، أو المخزنية)، والمقام الذي نتحدثون فيه (موقف الإفتاء)، يفرضان على المتلقي أن يتساءل: هل كنتم تتحدثون من موقع سياسي، أم من موقع ديني؟ وكلاهما يثير التساؤل ويوقع في الحرج. ولذلك نود أن نتعاون مع سيادتكم في رفع هذا اللبس.

الاحتمال الأول: الموقع السياسي

لا أعتقد أنكم ستجادلون في أن صفتكم اليوم هي: وزير بدون لون سياسي، أي وزير تكنوقراطي، وزير غير منتم لهيئة سياسية، أي حزب ذي اختيار أيديولوجي وبرنامج تطبيقي يصارع بهما اختيارات وبرامج لأحزاب أخرى تسعى إلى ممارسة الحكم بناء على تزكية الناخبين. لأن السياسة في العصر الحديث لا تمارس إلا من خلال الأحزاب، أي من خلال اختيارات. وأنتم تعلمون أيضا أن عملية التلوين والصبغة الحزبية في المغرب – مثل قضية التبييض وإعادة الصبغة، أي الترحال – لا تكلف شيئا، وقد أضيفتم من هذا الحرج.

إذا كان الأمر كذلك – وهو كذلك بدون شك – فارجوا من سيادتكم أن تشرحوا لمن سمع تصريحكم، أو قرأ عنه في الصحافة، مسوغ انتقادكم لموقف زعيم سياسي بارز، ساهم في إنشاء حزب سياسي وُصف بالراديكالية، هو منظمة العمل الديمقراطي الشعبي، التي كانت امتدادا لتنظيم سياسي ماركسي سري (23 ارس)، وقد عبّر عن ذلك الموقف الذي لم يعحبكم (رفض التقبيل) وهو أمين عام لذلك الحزب. ويحكي اليوم ما وقع وهو عضو بارز في الحزب الاشتراكي الموحد المعارض. وهو، قبل ذلك، أحد أبرز قادة المقاومة وجيش التحرير. أنتم إذن تنازعون اختيارا سياسيا معترفا به في المغرب.

هل في حقيقة سيادتكم، بجبيبيها الكبير والصغير، ما يخول لكم انتقاد الاختيارات السياسية التي يُعبر عنها الزعماء السياسيون، وهي جزء من اختيارات الأحزاب التي يقودونها، أو ينتمون إليها؟

صحيح أنكم لم تأتوا بدعا في هذا المجال، فقد كان وزير الداخلية الغابر يقوم بهذه المهمة بدهاء، بدون ضجيج، بالتلويح بالجزرة والعصا وتجفيف منابع، ومع ذلك فشلت أساليبه في تلبين عريكة شخصيات "لا يَقَعُّعُ لها بالشنان، ولا يُغْمز جانبها كتغماز التين"، من طينة الفقيه البصري رحمه الله،

ومحمد بن سعيد آيت إدر، أطال الله عمره وعمركم في الصالحات. بل إن القوة الناعمة التي كان يمثلها المرحوم عبد الهادي بوطالب فشلت، هي الأخرى، في تلبين عريكة شخصيات من عيار الفيلسوف والمفكر الكبير، مفخرة المغرب، المرحوم محمد عابد الجابري. فتلك هم عيونها في الثريا لا في الثرى حيث الماء والمرعى. صحيح أن المغرب يسيرُ نحو "استواء الماء والخشبة" ولكن لا مفر من مقاومة التقزيم ولو بأضعف الإيمان.

لست أدري من أي موقع تتحدثون عن السقوط (في الفخ)، ومن أية سيكولوجية استعلائية تُشهرون ما تُريدونه وما لا تُريدونه لرجل عَرَفَ ما يُريده بكل وضوح، وشقَّ طريقه إليه بإيمان راسخ حاملا خشبته على ظهره – كما قال دُعبل – أكثرَ من نصف قرن، لا يبالي متى يُصلبُ عليها. لا بُدَّ أن نَقبل، يا سيدي الوزير، أن يوجد بيننا رجال يرفضون النفاق ولغة الخشب، ذلك في صالح المغرب، فلا تحرموه منه. لقد كنتم أحياء تُرزقون حين كانت حقوق الإنسان تذبح، ويزج بالأبرياء في السجون السرية، ولم يثبت أنكم نبستم ببنت شفاة، فلا تستكثروا على المغرب أن يكون من بين أبنائه من يقول: "أرفض أن أُقبلُ مكرها، لأن إنسانيتي وكرامتي وإسلامي كلها ترفض ذلك". أعد الاستماع إلى الرجل فستجد أن ما لخصته لك وحصرته هو منطوق كلامه ومفهومه.

الاحتمال الثاني: الموقع الديني

إن من ينظر إلى الشق الثاني من اسم الوزارة التي كلفتم بتدبير شؤونها (الشؤون الإسلامية)، وإلى المقام الذي اخترتم إثارة المسألة فيه (التداول في جهة الفتوى، من له الحق فيها ومن ليس له) سيعتقد أنكم تتحدثون من وجهة نظر دينية شرعية. فهل هذا هو الموقع الذي تطرحون منه المسألة؟

إذا كان الأمر كذلك فسيكون محرجا من جهة الذات والموضوع. فمن جهة الذات، لا نعلم أن لسيادتكم الأهلية أو الكفاءة المعرفية للخوض في الأمور الدينية الشائكة، أمور تنزيل الشرع على الواقع. ولا أدل على ذلك من أن كل ما صدر عن سيادتكم من أعمال علمية (وهي محترمة) ينتمي إلى "التاريخ المحلي"، سواء كان تقريريا موثقا أم كان إنشائيا سرديا. وأنتم تعلمون (بصفتكم الجامعية) أن صفة "خبير"، في أي موضوع، مرهونة بالمنشورات المحكمة. ألا ترون أن تدخلكم دينيا في هذا الموضوع سيكون من قبيل إتيان ما تنهون عنه: الفتوى من غير أهلها.

أما من جهة الموضوع فإن "التقبيل" بالإكراه وغيره من قضايا البروتوكول والحريم السلطاني يعتبر من القضايا التي أصلها المؤرخون من زملائك (الجابري والعروي) في بيئات غير البيئة الإسلامية، بيئات فارسية وثنية وتركية عسكريّة، وهي تثير حساسية مفرطة لدى طوائف من المسلمين. فإن خضتم فيها سيخوضون معكم وسيعلو الغبار ليُعمي الأبصار، فدع الفتنة نائمة، وقاك الله شرها.

وقد توصلت في الأيام الأخيرة ببريد إلكتروني مما يُداول عى الأنترنت يروي خبرَ أعرابي، في الصدر الأول، كان يطوف بالكعبة وينادي: "يا كريم". فكان رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه، يتبعه ويكرر كلامه: "يا كريم". فظن الأعرابي أنه مجرد مشاكس يستهزئ به، فاحتج عليه. وعندما علم أن مُحدثه هو الرسول نفسه هَمَّ بتقبيل يده، فنهاه الرسول عن فعل ما يفعله الوثنيون. هذا الحديث أو الخبر مُهم سواءً كان صحيحاً أو موضوعاً، فهو إن لم يكن سنة فتعبير عن خيار داخل المجال الإسلامي. ولا استبعد ان يكون لتداوله في هذا الظرف علاقة بما خضتم فيه.

وهكذا ترى سيادتكم أن المسألة محرجة سياسياً ودينياً، ولذلك "لم أردها لكم" بدوري، فهي أشبه "بفخ" منصوب لأصحاب النوايا الحسنة الذين كثيراً ما "يلطون الطريق"، ويأكلون البصل. ثم ينفثونه بعد فوات الأوان، وحياة العالم أعلى من أكل البصل.

2- في مستوى انسجام الخطاب

يبدو لي كلام سيادتكم منطوياً على تناقض كبيرين ومفارقات متفاوتة الحجم. ففي الوقت الذي تثورون فيه وتشمئزون، كما جاء في الصحافة، لمجرد أن زعيم سياسي وقائد من قواد المقاومة وجيش التحرير عبّر عن رأيه وسجل موقفه ممارسة يعتبرها مُذلة، تصرحون — يا للمفارقة — "أن سيدنا يكره هذا الأمر"، أي التقبيل، ويريد من الضباط والعلماء أن يكونوا قدوة للآخرين في الكف عنه!!
إننا متأكدون من أن ما ذكرتموه صحيح، بل أكثر من ذلك مما سُمح لكم بإعلانه، أو مما قدّرتم بخبرتمك أنه كذلك.

فما سر هذا التناقض، يا سيادة الوزير؟

فإذا كان الملك نفسه "يكره" هذا السلوك، ويريد من الضباط والعلماء ان يكونوا قدوة في التخلي عنه، فلماذا هذه الغيرة الشديدة عليه، وهذا الانتقاد الحاد لمن سلك الطريق الذي يريده صاحب الشأن؟! هل نستحضر هنا المثل الشعبي الذي يتحدث عن "الذين كفروا (بمعنى غضبوا) والذين صبروا"، أم نستفتي الكواكبي في المجد والتمجد؟

وعليه ما هي الرسالة التي تريد تبليغها للعلماء: هل هي الرسالة التي يُعبّر عنها اشمنزازك أم تلك التي تُعبّر عنها الإرادة الملكية كما بلغتكم مشكورا؟

داخل هذا التناقض حاولت أن تسوِّغ التقبيل بإعطائه بعداً رمزياً متجاهلاً عدة اعتبارات نتطرق إليها. قلت: "نحن نُقبّل يدَ المغرب". أن تقول هذا لرفاق الزرقطوني وعلال بن عبد الله وغيرهم ممن وضعوا ارواحهم قبل أموالهم وأولادهم بين يدي الوطن هذا يعود بنا إلى خرق قاعدة مراعاة المقام. لا يقال مثل هذا الكلام في "حضرة" اشخاص من هذا العيار، ولا يقال بالأحرى لتقديم نموذج في الوطنية غير نموذجهم، وإلا لزم السؤال عن هوية الـ"نحن" هذه. إن الكثيرين من الذين قبّلوا اليد، وقلبوها

ظهرًا وبطنًا، هم الذين حاولوا قطعها: أفقير والدليمي ومن على شاكلتهم، وهم الذين خربوا الاقتصاد المغربي وحوّلوه إلى حساباتهم الخاصة. لقد أثبت التاريخ أن المقبلين الكبار هم الخطر الكبير على سلامة المغرب، هم المخربون الكبار. ليس للمدرسة المخزنية ما تفتخر به في هذا المجال، فاتقوا الله، وقلوا للناس حسنى.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية أحسّ بالكثير من الغبن والظلم لوطنيّتي حين أقرأ في مقدمة "السجينة" La prisonnière – وكتب أخرى تتحدث عن ذلك العهد الذي تغار عليه – أن أطفال أفقير ونساء أخريات لا دخل لهن في الموضوع فضوا رهرة أعمارهم بين الحياة والموت في "سجون المغرب". وأنا أطلب من سيادتكم، وأنتم المؤرخ المدقق، أن ترشدوني إلى أرشيف وزارة العدل (المغربية طبعا) الذي يحتوى على السجون التي مر منها أبناء أفقير وغيرهم من المخطوفين في سنوات الرصاص. المغرب الذي نُقِبَّله هو المغرب الذي نعرفه، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. وقد كتبت منذ حوالي ربع قرن مقالا بعنوان: **ماذا تعرف عن المغرب؟** وهو موجود على موقعي على الأنترنت. كان ذلك بمناسبة افتضاح سر تازمامرت. لقد وجد المحافظون الجدد وعلى رأسهم بوش الإبن حرجا في سجن المتهمين بالانتماء إلى القاعدة فوقوطنهم، فوق التراب الأمريكي فأفتى وزيرهم في العدل بتوجيههم إلى جوانتانامو بخليج كوبا. فأين وضع المخزن (ولا أقول المغرب) سجناءه خارج القانون؟ نقلهم إلى المغرب المنسي، يا سيادة الوزير. في هذا الوقت كان بعضنا يشطح ويردح في استلاب الدراويش، ويختم السهرة بالشواء والدجاج البلدي، صح النوم.

إن المسألة تحتاج إلى تدقيق: أي مغرب نُقِبُّ؟

فهناك من يقبّل مغرب المواطنة القائمة على تكافؤ الفرص، والمساواة أمام القانون، والتكافل بين المواطنين. وهناك من يقبّل مغرب الريع وانتهاز الفرص واستنزاف الثروات المادية والبشرية. وبين القطبين ألوان وأشكال ثانوية. المواطنة تعني الكرامة، تعني الشئ الذي لم يعجبك، يا سيادة الوزير، من كلام السيد بنسعيد. الانتهازيون يوهمون المخزن بقدرتهم على ستر عوراته وإلباسه طاقة الإخفاء التي تمكنه من أن يستمر ويعيش في العصر الحديث دون أن يثير الاستغراب، وهم بذلك إنما يجعلونه أضحوكة أمام العالم. شعار الانتهازيين: اليد التي لا تستطيع قطعها عليك بتقبيلها. حين عُزل محمد الخامس، رحمة الله عليه، بايعوا ابن عرفة، أو بعثوا إليه بالتهاني، وحين عاد محمد الخامس قبّلوا الأرض تحت قدميه، وطلبوا القرب والحظوة. أليس هذا ما قاله بنسعيد؟

وأخيرا نقول سيادتكم: نحن المغاربة لنا قيم نحترمها. وسؤالنا، في أول الكلام وآخره، هو: هل هي قيم حقوق الإنسان المتعارف عليها دوليا، كما جاء في الدستور المغربي، أم هي قيم الإسلام التي تقول – وكأنها المصدر الأول لتلك الحقوق –: "إنا خلقناكم من ذكر وأنثى... إن أكرمكم عند الله أتقاكم"؟